ميلاد والدة الإله

الميتروبوليت سوتيريوس، مطران بيسيديا
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

" ميلادكِ يا والدة الإله بشَّر بالفرحِ كلَّ المسكونة، لأنّهُ منكِ أشرق شمس العدل المسيح إلهنا، فحلَّ اللعنة، ووهب البركة، وأبطل الموت، وأعطانا حياةً أبدية." (طروبارية عيد ميلاد السيدة).

إن ميلاد مريم العذراء الدائمة البتولية والدة الإله، الذي يُحتفَل به في الثامن من أيلول، هو مصدر فرح روحي كبير. المرأة المولودة هي التي ستلد "في الجسد" الإله الكلمة الأزلي، خالقَ العالم ومخلّصَه، الذي أبطل الموت لكي تكون لنا الحياة الأبدية. وهذا العيد البهيج لا يشارك فيه البشر فقط، بل الكون كله، بما في ذلك عالم الملائكة غير المنظور.

إذا كان العالم بأسره مبتهجاً بولادة مريم "الممتلئة نعمة"، فيمكننا أن نتخيّل كيف شعرت والدتها حنة، خاصة بعد أن تغلبت على عقمها الجسدي. بالإضافة إلى ذلك، هناك والدها يواكيم، الذي رأى تحقّق صلواته الحارة إلى الله بأن يصبح أباً، ولو في سن الشيخوخة. كل هذا كان بالتأكيد معجزة! وكما نعلم من العهد القديم، بارك الله أيضاً نساءً أخريات بهذه الطريقة. يمكننا أن نتذكّر سارة، زوجة البطريرك إبراهيم؛ ورفقة زوجة إسحق؛ حنّة أم النبي صموئيل. ومع ذلك، فإن حالة حنّة ويواكيم مختلفة في جانب رئيسي واحد. ففي حين أنجبت الأمهات المذكورات أعلاه أطفالاً فاضلين ومقدَّسين، فإن طفلة حنة ويواكيم كانت ستصير والدة الإله القديسة!

إن أمنا القديسة، كما سمعنا، وُلدت بعد صلاة متواصلة وقلبية من جدّي الإله البارّين يواكيم وحنة. ومع ذلك، لكي تأتي هذه البركة، كان عليهما أن يقتنيا إيماناً لا يتزعزع ومثابرة لا تُقاس. لقد أنميا رجاءً لا يخيب، إذ صليا بثقة أن الله سيستجيب صلواتهما. نحتاج أيضاً إلى الأخذ في الاعتبار أن عدم الإنجاب هذا لم يحدث لفترة قصيرة، ولكن كما يعلمنا التقليد، أنجبت حنة والدة الإله بعد خمسين عاماً من العقم. يجب أن يصبح سلوك الجدّين القديسَين قدوة لنا. على الأزواج غير القادرين على الإنجاب ألا يفقدوا رجاءهم في الله، لأن "غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله" (لوقا ١٨:٢٧).

إن مثل هذه المعجزات، التي نراها تحدث حتى في أيامنا هذه، ليست نادرة. ولكن المطلوب في مواجهة مثل هذه الجهادات هو أن نتطلّع إلى والدَي والدة الإله للاستلهام منهما. كبشرٍ ذوي نقاط ضعف، فإننا نتعب ونتذمر أثناء جهادنا. نشكو من أن صلواتنا لا تُسمع، ونفقد صبرنا. وفي الحزن تتلاشى حماستنا، وتتركنا معها الرغبة في مواصلة الجهاد. لا ينبغي أن ننسى الجدّين القديسَين يواكيم وحنة! هل توقفا عن الدعاء إلى الله لأنه لم يستجب لصلواتهما مباشرة؟ هل كفّا عن السؤال

والطرق والرجاء؟ حقاً، لقد كان صبرهما وتصميمهما غير متزعزع طيلة سنوات عدة! وفي النهاية، كوفئ إيمانهما. في أوقات الألم، ما نحتاجه هو الثقة بوعود الله ومشيئته، واللجوء إليه بالطاعة المطلقة والرجاء، حتى لا نملّ الصلاة (أنظر لوقا ١:١٨). يعلم الله متى وكيف يكون من المفيد لنا أن نتلقّى هبتَه التي لا تقدر بثمن والتي لا توصف، أي نعمته الإلهية!

فلنسلك أيضًا كما فعل الصدّيقان يواكيم وحنة، ولنكنْ هادئين في مواجهة التجارب أو الصعوبات التي يسمح بها الله لمنفعتنا الروحية وتقدّمِنا. ليشفِ الرب، بشفاعات والدة الإله القديسة، قلوبنا المضطربة التي تفتقر إلى الإيمان والرجاء والصبر والثقة والثمر الروحي. وليملأ نفوسنا أيضاً بنعمته الإلهية القادرة على كل شيء، التي تشفي كل مرض وتكمّل كل نقص، فتتجدد البشرية. آمين.

Source: Metropolitan of Pisidia Sotirios. Homily on the Birth of the Theotokos. Pemptousia. 8 September 2020. https://pemptousia.com/2020/09/homily-on-the-birth-of-the-theotokos/